وهكذا أهملت «مى»..

عباس محمود العقاد

مى زيادة

مصطفى صادق الرافعى

فى شهر يوليو من عام ١٩٣٤ جاءنى خطاب من الأديبة النابغة الآنسة «مى» التى كانت فى العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن، المنارة المشعة بالفكر والأدب والجمال فى مجتمع أعلام ذلك الوقت من أمثال لطفى السيد وخليل مطران وطه حسين والعقاد والرافعى وغيرهم..

وكانت هى بين الجميع مرمى الأبصار والقلوب.. الملهمة للجميع بخير ما يرتفع به العقل والقلب. وكانت هى بحسنها الجذاب وثقافتها الواسعة وفكرها العميق تجعل الجميع يطمع فى رضاها والتقرب إليها.. ولكن قلبها كما كان يشاع عنها وقتذاك لم يشغل بواحد من أولئك الأدباء. وقيل إن جبران خليل جبران هو وحده الذى خفق له قلبها. وربما هو الوحيد الذى كان بينه وبينها مراسلات. وليت هذه المراسلات نشرت. وليت من عنده منها رسالة ينشرها. وهذا ما حفزنى إلى ان انشر هذه الرسالة فى مجلة «أكتوبر» وأوصى بأن يكون نشرها بخطها الأنيق. لأن خطها وحده قد يكشف عن أعماق شخصيتها ويبقى وثيقة ثمينة للقارىء والباحث.. وهذه هى الرسالة بتاريخها وعنوانها ونصها وخطها:

شارع علوى رقم (١)

القاهرة فى ١١ يوليو سنة ١٩٣٤

حضرة الأديب الكبير

لأعرب عن نوع إعجابى بشهرزادك أعترف بأنى اقتبت «فتيان الكهف» بغية تعقب شخصية الكاتب: تلك الشخصية البعيدة الغور المتحركة، مع ذلك، شفافة فى الأجواء السحرية التى تشغف بها وتبدعها. فأسترق ولو استيلاء موقوتا على العنصر الأساسى فى تلك الشخصية.

ولكنى لم أفز من هذه الناحية بشىء، ولم يزدنى كتاب «فتيان الكهف» إلا شعورا بأن شخصية المؤلف – ككل صورة صاغها المؤلف – لاتفتأ تطارد وتبز نفسها إذا ما عثرت عليها حينا. فما تكاد تغزو فى فهما منطقة وتنشىء صورة حتى تكون قد تخافت تلك المنطقة وتحولت عن تلك الصورة. وإذا بكل انتباه يدفع تطلعها إلى ابتداء.

أشعرنى كتابك بأن بيراندللو Priandello مصريا يتولد عندنا. وذلك من الشواهد على ان الحضارة الفكرية فى مصر ماضية فى التوغل. إذ ليس من هو أدرى منك بأن الفرق الجوهرى (المشتمل على فروق لا تحصى) بين الحضارة والافتقار إلى الحضارة هو ان الافتقار إلى الحضارة غرار واحد تطبع عليه جميع الشخصيات.. بينما الحضارة فى ازدهارها تشك كلا من شتى الشخصيات فى قالب مستقل، ونسيج من نوع خاص هى شخصيتك الجديدة الكثيرة التملص والتقلص.

جديدة؟.. بل هى قديمة أيضا كالماء والهواء. قديمة كعناصر الفكر والشعور والفن. ويخيل إلى أحيانا أن كل صورة صغتها فى كتابك إنما أنت التقيت بها فى بعض أغوارك السالفة فعجلت بها جولة الخبير فى شقق سحيق موفور الشجن والاغراء

بيد أنى عرفت منك بخصومتك مع الدكتور طه حسين، وخصوصا بمبادرتك إلى مضافاته. أكثر مما عرفت فى كتابك

واسمح لى ان أذكر مبلغ سرورى باعتذارك عن قبول حفلة التكريم. لكان يسرؤنى – لست أدرى لماذا – أن تصمد أنت، لزفة، أدبية هى حسنة فى ذاتها وفى وقتها ولكنها أصبحت كثيرة التداول ففقدت معناها الأصيل. وأشكرك لأنك عرفتنى بشخصية فنية كنت أظن أن أعواما كثيرة ستنقضى قبل ان يتجلى مثلها فى اللغة العربية

مى

ولست أذكر أنى كتبت ردا على هذه الرسالة. وليس من المعقول أن تبقى رسالة كهذه بغير رد. فلا المنطق يقبل هذا ولا قواعد الأدب واللياقة والمجاملة. كان هناك رد بغير شك. ولكنه كان ولا ريب ردا بسيطا مما تدعو إليه ضرورات الواجب. لا أكثر ولا أقل. لأن ردى لو كان يحمل ما تحمله رسالتها من عمق فكر ومشاعر لاحتفظت بصورة منه، ارفقتها بالرسالة. وهو ما أفعله فى كثير من الأحيان عندما يهمنى الأمر.. لماذا إذن لم يهمنى أمر هذه الرسالة ولا صاحبتها؟ بل انى أذكر انى لم اخاطب فى شأنها احدا، حتى ولا صديقنا الدكتور طه حسين الذى كان يعرفها أتم المعرفة، إذ كان من زوار صالونها الدائمين، وكان ولا شك يستطيع أن يحدثنى عنها حديث العارف المطلع.. لماذا لم تكن عندى الرغبة التى كانت عندها ووصفتها فى رسالتها بقولها: «بغية تعقب شخصية الكاتب، تلك الشخصية البعيدة الغور المتحركة، مع ذلك، شفافة فى الأجواء السحرية التى تشغف بها وتبدعها. فأسترق ولو استيلاء موقوتا على العنصر الأساسى فى تلك الشخصية»؟.

لماذا كانت تريد الاستيلاء على شخصيتى؟! ولماذا لم أرد أنا أيضا الكشف عن مكنون سرها أو الاستيلاء على شخصيتها؟.. لقد كنت اسمع انها حسناء، ولم يكن عمرها فى ذلك الوقت قد جاوز الأربعين إلا أن يكون بقليل.. فهى إذن كانت فى أوج النضج الفكرى والحيوى عند المرأة. وهو ماكان يغرى بفتح باب المراسلات بيننا. ولو حدث هذا لنتجت عنه رسائل ذات قيمة فى تاريخنا الأدبى ربما لم يشهد مثلها الأدب وفير فى الآداب الأخرى، ويكفى لاستذكر فى أدبنا العربى، وتاريخ الأدب الفرنسى بطرائف رسائل كتبها الأديب بلزاك إلى مدام هانسكا الكونتيسة البولندية، نشرت فى مجلدين

كثيرين بعنوان : « رسائل إلى الأجنبية » . أما هي فقد بقيت منها رسالة إليه تاريخها ١٨٣٣ أي في نفس التاريخ تقريبا الذي كتبت فيه « مي » رسائلها هذه وهو عام ١٩٣٤ . والفرق فقط قرن من الزمان ! سبحان الله ! . . أقول فقط . وهناك فروق كثيرة : إذا استبعدنا عبقرية بلزاك ، فهناك على الأقل « الحب » . . ! كان بينهما حب . وقيل إن فترة الحب والمراسلات كانت أخصب فترات قريحة ذلك الكاتب ! . . فما الذي أقعدني عن زيارتها وقد كتبت لي عنوانها ؟ وإذا لم اجرؤ على ذلك فلماذا لم تكن المراسلة المستمرة التي تدفعها إلى اثراء الأدب العربي بخصب قريحتها ، وإلهامي بما قد يفع انتاجي ؟ . . أين كنت وقتذاك ؟ وماذا كنت أفعل ؟ . . كنت اسكن « بنسيونا » قريبا منها . . وكنت اكتب أشياء لا طعم لها عندي . وكان قلبي مشغولا بامرأة رومية تافهة من نزيلات البنسيونات ! . . يا للخيبة ! إنها لحظات في حياتي ينطفيء فيها النور داخل رأسي كما تنطفيء الكهرباء داخل منازلنا ويقال إن اسنان فأر لعبت في الأسلاك . . يخيم الظلام فجأة أمامي . . فلا أرى الطريق السليم . . لا . ليست أسنان الفأر . انها يد القدر . أحيانا ارتب كل شيء على خير وجه . ويكون الطريق أمامي واضحا فاذا بيد تطفيء النور من عقلي فأتخبط في الظلام دقائق ، يعود بعدها النور فإذا كل شيء قد فسد . واتضح لي فعل القدر الساخر . . ولكن لماذا يكاد يخلو ادبنا من أدب الرسائل بين المرأة والرجل ؟ . . هذا موضوع يحتاج إلى بحث ممن يهمه الأمر . وهو في حالتنا هذه ليس بمشكلة مع وجود شخصية أدبية مثل « مي » . ولكن المستغرب هو عدم انتهاز فرصة وجودها ، وإهمال الاستمرار في مراسلتها . خاصة وهي تثير في رسائلها مسائل مهمة يكاد لا يفطن إليها القارىء المتعجل ، مثل قولها : « ويخيل إلى احيانا ان كل صورة صغتها في كتابك إنما أنت التقيت بها في بعض أعمارك السالفة . . » إذن كانت « مي » تؤمن بنظرية تناسخ الأرواح ! . . كذلك قولها « إني عرفت منك خصومتك مع صديقنا الدكتور طه حسين ، وخصوصا مبادرتك إلى مصافاته ، أكثر مما عرفت في كتابك » . . لقد كان يهمها إذن أن تكتشف وتعرف الجانب العاطفي في الشخصية . ويظهر أنها اطمأنت عندما عرفت أني لست رجل خصومة . وأن المصافاة عندي هي الأهم . . ثم سرورها بعدم قبول التكريم . . لأن التكريم في رأيي لا ينبغي أن يكون في مرحلة الانتاج . ويقبل فقط بعد الموت ، أو عند دخول مرحلة الانتهاء . . فلا بأس أن تقبل من المحبين تحية المودعين . .

وإنه ليسرني أن تكون « مي » قد رأت في شخصيتي ما أثار سرورها ، بل اعجابها . وأحمد الله أن العمر لم يمتد بها لترى في هذه الشخصية ما يجعلها تغير رأيها . . فأنا لا أطيق رؤية شخصيتي تلبس دائما ثياب الجد . . وفي أشد المواقف جدية يبرز لنظري جانب المهزلة ! . . وكثيرا ما كنت أخشى في أفجع درجات الحزن ان تظهر بين دموعي مبادىء ضحكة ! . . فالجد عندي لا آخذه طويلا على سبيل الجد ! . . فأنا أرى نهاية كل شيء قبل النهاية . . وأستعد للضحك على حالي قبل الآخرين . . فالقدر هيأ لي المصير الساخر . . فأنا لم اسعد بحب امرأة جديرة بالحب . . فلقد احببت من لا تستحق . ومن استحقت لم تحيني . رحيالي في الحب قطارات لا تتقابل . . ولم اعرف « مي » ولم أرد أن أعرفها . . ولكني كنت اسعى إلى معرفة تلك الرومية التي بلا جنسية . كانت تقطن بمفردها في حجرة في ذلك البنسيون الذي لا يحوي غير ثلاث حجرات : حجرة يقطنها صديق وزميل في باريس أستاذ الاقتصاد يومذاك بكلية الحقوق الدكتور عبد الحكيم الرفاعي ، وحجرة اقطنها أنا . والحجرة الوسطى بيننا تقطنها هذه الرومية المليحة . لمحتها خارجة من حجرتها بروب يابانى « كيمونو » بديع الألوان لفت نظري وشغلني . . وفاتحت صديقي في امرها فلم يبد عليه أنه التفت إلى شيء . فهو لا يعرف من الدنيا غير مادة الاقتصاد . منذ كان معنا في باريس ونال فيها الدكتوراه بامتياز كبير . والف في الاقتصاد اضخم مجلد . أصبح مرجعا لرجال المال . كما أصبح هو فيما بعد محافظ البنك المركزي الذي يصدر أوراق البنكنوت بامضائه . ويوم رشحوه للجائزة التقديرية جعلت أقول للجميع أخرجوا من جيوبكم ورقة مالية من ذات الخمسة الجنيهات تجدوا توقيعه عليها . وقد نالها بالاجماع . وظفر بتقدير الجميع . . رحمة الله عليه رحمة واسعة . ولكنه خارج علم الاقتصاد لا يعرف أن الله سبحانه وتعالى خلق شيئا اسمه المرأة الجميلة . لذلك لم يبصر جارته المليحة ولم يشعر بوجودها ، مع أنه جاء قبلي إلى هذا البنسيون . وهو الذي دلني عليه وحثني على النزول به . فلما أردت التعرف إلى هذه الجارة لم أجد غيره وسيلة إليها . فقلت له :

– اسمع ! . . النبي ﷺ وصى بسابع جار . . وجارتنا هذه لم نسأل عنها . .

فلم يفهم المقصود . فاخترعت له خبرا لا أساس له . وهو أن عيد ميلادها قريب . ومن واجبنا أن نقدم إليها شيئا . . باقة ورد مثلا . . أو دعوة على العشاء . .

فقال مترددا :

– ضروري يعني ؟ . .

قلت له مؤكدا :

– هذا أقل واجب . . والمصروفات بالنصف . .

ولبثت أقنعه حتى اقتنع . وافهمته أن عليه هو مفاتحتها ودعوتها والاتفاق معها على الليلة ، باعتبار أنه هو الساكن الأسبق في البنسيون والجار الأقدم لها . . وجعلت افتح عينيه على محاسنها الملائكية وأدبها الجم وأخلاقها الرفيعة وملامحها الحلوة التي تسر الناظرين ، وبحكم على أمثالنا من أهل النظر والذوق المهذبين السعي إلى معرفة هذا الطراز الجميل من جيراننا الطيبين ! . . فذهب إليها . وعاد يخبرني أنها قبلت الدعوة شاكرة ، وحدد لها ليلة السبت في مطعم « الكورسال » . .

وكان في ذلك العهد مطعما جيدا تعزف فيه الموسيقى . . واتفقنا على أن اذهب أنا وصديقي قبلها ونحجز مائدة وننتظرها . واقبلت هي بعد قليل متألقة . وتركت أنا صديقي يتولى هو الأمر . فقام به على خير ما تقوم به النخوة الريفية الكريمة . وأصدر الأمر بالطلبات . فجاءت بكل مائد وطاب . وبدأنا الأكل والكلام . وجعلت أحيي الضيفة بالثناء على حسن ذوقها في اختيار الملابس ، وصديقي مشغول بالتهام الطعام . ولما شعر أننا ننتظر منه مشاركة في الحديث قال :

– نعم . . اختيار المسائل المهمة التي يهتم بها الاقتصاد اليوم . وأكثرها ما يتصل برأس المال وتجديده . وهو ما اهتم به أنا اليوم في تأليف كتابي . . فرأس المال كما يقول آدم سميث ليس فقط القدرة على التصرف في قوة العمل للآخرين ، ولكنه في جوهره القدرة على التصرف في العمل غير المأجور . . وإذا نظرنا إلى فائض القيمة في رأيي أنا . .

وبدا عدم الفهم على وجه الضيفة فأسرعت أغير الموضوع . .

وتحدثنا عن باريس . فانفتح بذلك باب الحديث عن أناقة الباريسيات . وأفاضت المرأة في الاعجاب بملابس محال شهيرة هناك مثل « لافاييت » و « البرانتان » وما فيها من بضاعة رائعة . . وتدخل صديقنا العلامة فعرج بالموضوع مرة أخرى ناحية البضاعة في علم الاقتصاد ، وانها هي المادة التي لا تعد فقط وسيلة استهلاك ، انما هي أيضا وسيلة تعامل ، وانها الشكل الأولي لثروة الشعوب . . فأسرعت الضيفة إلى تحويل الموضوع حيث يناسبها الحديث . . وكانت على كل حال ليلة سمرنا فيها سمر اللهو الخالي من الفكر . لولا محاضرات الاقتصاد من صديق العلامة ، وهي الشيء الوحيد الجاد في السهرة . . وقد تكفل كرمه هو بدفع كل النفقات . .

□ □ □

وتمت المعرفة بهذه المخلوقة الحلوة . ونسيت الأديبة النابغة وأناقة اسلوبها وعمق تفكيرها . .

وهكذا أهملت « مي » ! . .

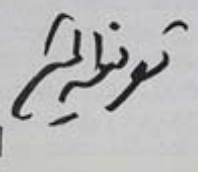

□